Route Educational and Social Science Journal

Volume 5(11), September 2018

Article History		
Received / Geliş	*Accepted / Kabul*	*Available Online / Yayınlanma*
10.06.2018	*31.06.2018*	*01.09.2018*

MAZONA IS THE CAPITAL OF WEST BAYLIK IN THE OTTOMAN PERIOD FROM EMERGENCE TO THE DEMISE OF THE POLITICAL ROLE

***Ahmad Behry*[1]**

Abstract

The subject deals with the definition of one of the most important cities in the West of Algeria, which became known for a while as the capital of Islamic jurisprudence thanks to its school, which was the number one visited city for students in the Middle west and then became the capital of the West Baylik during the Ottoman era, but despite this scientific fame and then political one, the city did not receive the caring in the writings of historians and this research is an attempt to find its path from when it was mentioned the first time until it was disgarded with the end of the rule of the Ottomans on Algeria. The research focused on the political role of the city and not on the other roles, especially the scientific one. Which was represented by the jurisprudence school because it will require more space because it began before the political role and ended after

[1] Dr., Wehren University, Algeria.

مازونة عاصمة بايليك الغرب
من النشأة إلى زوال الدور السياسيي

د. أحمد بحري –جامعة وهران 1- الجزائر

الملخص

يتناول الموضوع التعريف بإحدى أهم مدن الغرب الجزائري التي ذاع صيتها ردحا من الزمن كعاصمة للفقه الإسلامي بفضل مدرستها التي كانت محط رحال طلبة العلم في المغرب الأوسط ثم أصبحت عاصمة بايليك الغرب خلال العهد العثماني لكن رغم هذه الشهرة العلمية ثم السياسية إلا أن المدينة لم تنل ما يقابل ذلك من العناية في كتابات المؤرخين وهذا البحث محاولة لرصد مسارها من أول ما ورد اسمها في التآليف إلى أن خبا صيتها بزوال حكم العثمانيين عن الجزائر

وقد اكتفى البحث بالدور السياسي للمدينة دون الخوض في أدوارها الأخرى خاصة العلمية والذي مثلته مدرستها الفقهية لأن ذلك سيتطلب مساحة أكبر لأنه بدأ قبل دورها السياسي وانتهى بعده .

.

المقدمة

لم يحظ تاريخ أغلب المدن الجزائرية خلال العهد العثماني بالقدر الذي حظيت به الجزائر العاصمة، لوضعها الخاص، بسبب الأحداث التاريخية التي عرفتها والتي مردّها إلى المواجهة المستمرة طول عهد العثمانيين، وعناية الكتابات الغربية بها؛ على اختلاف الأقلام التي كتبتها، من قناصل وأسرى وجواسيس ورهبان؛ تكفّلوا بعملية الفداء وغيرهم.

إن مدينة وهران هي الأخرى؛ عَرَفت بعض الاهتمام المرتبط بالوجود الإسباني فيها وحرصَ العثمانيين في الجزائر على استردادها، ومقاومة الاسبان الذين اعتنوا بتقييد كل صغيرة وكبيرة عن يومياتهم التي عايشوها في هذه المدينة.

وأما قسنطينة والمدية - عاصمتي بايليكي الشرق والتيطري - فكان لهما نصيبهما من التوثيق، المتمثل فيما حوته السجلاتِ الرسمية، إضافة إلى بعض ما قيّده أصحاب التراجم حول أعلام بعض المدن، مثل الغبريني في عنوان الدراية حول أعلام مدينة بجاية، أو البوني حول أعلام عنابة، أو ابن مريم في البستان حول علماء وصلحاء تلمسان ... وهو قليل جدا.

أمّا باقي المدن الجزائرية؛ فإنّ البحث في تاريخها السياسي تعترضه عدة صعوبات، منها ندرة الوثائق، أمّا إذا بحثنا حول تاريخها الحضاري؛ فالمهمة أصعب، ذلك أن الكتابات التاريخية المحلية - إن وجدت - لا تهتم بهذه الجوانب، بل تكتفي برصد الأحداث السياسية والأحداث الكبرى فقط، التي ارتبطت غالبا بحياة الزعماء السياسيين، أو بعض العلماء والصالحين.

أمّا ما عدا ذلك؛ فلا اهتمام به ولا رصد لجزئياته، إلا ما جاء عارضا في سياق الحديث، وعلى الباحث اليوم أن يستغلّ هذه الشذرات العارضة، ويحاول الربط بينها؛ عَلَّهُ يحصل من ذلك على طائل.

وهذا البحث محاولة للتعريف بإحدى هذه المدن، التي كانت أولى عواصم بايليك الغرب، لكنها لم تنل حظها من العناية، ولا نكاد نعرف عنها غير القليل المبثوث هنا وهناك بين صفحات المؤلفات التاريخية والأدبية والعلمية، وكأنها لم تكن عاصمة في يوم من الأيام.

1. الموقع وأصل التسمية .

دأب الذين كتبوا عن مدينة مازونة - فيما سبق - ؛ مثل لوكيل يوسف، وبلحميسي، ومن نقل عنهما [2]؛ أن يبدؤوا الحديث عن المدينة بتحديد موقعها الجغرافي، ثم الولوج إلى تاريخها، مقسّمين هذا التاريخ إلى المرحلة البربرية ، فالعربية (الإسلامية)، فالعثمانية، وأخيرا المرحلة الاستعمارية .

واحتراما لنفس القاعدة؛ ستكون البداية بتحديد الموقع الجغرافي، كما حدّده من كتبوا عن المدينة قديما نقلا عن مروياتهم، وليس كما تحدّده الجغرافيا الحديثة، ثم أصل تسمية المدينة، واختلاف الروايات حولها، وبعد هذا يأتي ذكر المدينة في المرويات التاريخية.

كل ذلك لمعرفة بدايات المدينة، وأثرها التاريخي والحضاري

الموقع الجغرافي للمدينة:

يصف السيد لوكيل يوسف موقع منطقة الظهرة أو جبال الظهرة، بأنها لا تشبه بتاتا جبال الشمال الإفريقي في خصائصها، ثم يحدّدها بالبحر الأبيض المتوسط شمالا، وجبل زكار[3] من الشرق، ومن الجنوب والغرب بسهل الشلف الفسيح، ثم يسترسل في وصفه مبرزا أهم الخصائص الجغرافية التي

[2] ، والطاهر جنان في les villes precoloniales نقل عنهما أغلب من كتب عن مازونة ؛ مثل الجيلالي صاري في كتابه كتابه : مازونة عاصمة الظهرة .

[3] يقع جبل زكار في الغر ب الجزائري ويفصل بين سلسلتي جبال الظهرة وجبال الونشريس

عايشها ولاحظها كونه ابن المنطقة فيقول : " وإقليم الظهرة إقليم جبلي، تتخلله مجاري مائية لكثرة منابع الماء فيه، ولكن من دون أن تصل هذه المجاري إلى تشكيل وديان ذات أهمية " [4].

وإذا كان الوجه المطل على سهل الشلف خاليا من الغطاء النباتي؛ فإنه في جهة البحر تغطيه أشجار غابية متنوعة، أهمها الصنوبر والبلوط، كما لا يخلو من الأشجار المثمرة الأخرى، وبه مساحات مزروعة كبيرة، جعلت منه خزان قمح للجنوب والسهوب سنين عديدة [5] .

ولعل هذه الوفرة النباتية هي ما جعلت أهله قليلي الترحال، لعدم حاجتهم إلى وسائل العيش من كثرة ما توفره منتوجات بلادهم الزراعية [6].

وقد سبق الإدريسي [7] لوكيل يوسف إلى هذا الوصف؛ إذ يقول : "... ويلي حوض فروح في البر مع الشرق مدينة مازونة . ومدينة مازونة على ستة أميال من البحر وهي مدينة بين أجبل وهي أسفل خندق ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة، ولسوقها يوم معلوم، يجتمع إليه أصناف من البربر، بضروب من الفواكه والألبان والسمن، والعسل كثير بها، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا " [8].

وبالعودة إلى لوكيل يوسف نجده يحدد موقعها على بعد 35 كلم من البحر الأبيض المتوسط، وبـ : 22 كلم عن محطة عين كرمان [9] ، على هضبة

(a) [4] Y. Loukil, Mazouna ancienne capitale du Dahra Alger : imprimerie algérienne 1912, p:11

(b) [5] Ibid , p :11

(c) [6] Y. Loukil, op cit , p :11

[7] هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدْرِيسي الحسني الطالبي ، أبو عبد الله : مؤرخ ، من أكابر العلماء بالجغرافية . هـ - 1100م ، ونشأ وتعلم بقرطبة . ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى 560من أدارسة المغرب الأقصى ، ولد في سبتة سنة:) ووضع له كتابا سماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أكمله سنة Roger IIصقلّيّة ، فنزل على صاحبها روجار الثاني (548 هـ . وللإدريسي أيضا (الجامع لصفات أشتات النبات) ، و (روض الأنس ونزهة النفس) ، و(أنس المهج وروض ه - 1165 م . 493الفرج) . ويرجح أن وفاته في سبتة سنة :

ينظر : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، ط : 15 ، 2002م ، ج : 7 ، ص : 24 .

[8] الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكتب ، بيروت ، ط 1 ، 1409 هـ، ج : 1 ، ص : 271 . وينظر أيضا : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، تصحيح ونشر هنري بيريس ، دار الكتب، الجزائر ، 1957 م ، ص : 72 .

[9] تعرف الآن باسم واد رهيو نسبة إلى الواد الذي يمر بها وهي أكبر دوائر ولاية غليزان .

ضيّقة ، تفصلها عن محيطها وديان عميقة من كل الجهات عدا من جهة الشمال [10].

ويتطرق – مولاي بلحميسي هو الآخر في مقدمة كتابه عن مازونة - إلى هذه الجغرافيا، لكنه قبل أن يذكر مازونة يتكلم عن منطقة الظهرة عموما ، ويشرح معنى كلمة الظهرة [11]، ثم يستعمل نفس أوصاف لوكيل يوسف وبعض محدداته، بل يقتطع فقرة كاملة وينقلها نقلا حرفيا في سياق وصفه للتضاريس المحيطة بالمدينة والطرق الرئيسية المارة بها والحدائق والبساتين المختلفة الغلات المتوزعة على جنباتها [12] .

ثم ينقل بعد ذلك جملة من الأوصاف؛ لا تكاد تختلف عما ذكره لوكيل يوسف [13]، لكن على لسان مجموعة من الكتّاب الأوربيين، منهم بياس الذي وصف الشلال في مدخل المدينة، وفلورانشي الذي يصف الأشجار المثمرة العديدة، وريتشارد الذي يموقعها على ضفاف وادي واريزان .

أما الطبيب الإنجليزي طوماس شاو؛ فإنّه حدد موقعها في كتابه المفصل حول تاريخ وجغرافية أيالة الجزائر بقوله : " تقع مدينة مازونة على بعد مرحلة شمال نهر شلف، في سفح سلسلة جبلية تبتدئ غرب بلاد بني زروال ، وتسير بالتوازي مع نهر شلف حتى تصل إلى مدينة المدية ... " [14] .

تأسيس المدينة وأصل تسميتها:

في غياب مادة تاريخية موثقة عن مازونة، وفي انتظار أن يكشف التنقيب الأثري عن أدلة أكيدة، تثبت تاريخ ونسبة تأسيس المدينة؛ يبقى

(d) [10] Y. Loukil , op cit , p:12

[11]: الظهرة حسب بلحميسي كلمة مشتقة من الظهر أو السنام، وتعني كذلك الشمال أي عكس القبلة التي تعني الجنوب. ينظر

(e) Moulay Belhamissi, Mazouna une petite ville une longue histoire, sned: Alger, 1981, p:12

(f) [12] Moulay Belhamissi , op cit , p : 13 .

(g) [13] Ibid , pp : 17 _ 18

(h) [14] Shaw Thomas , Voyage dans La Regence d'Alger , ou Description Geographique , Physique , Philologique , etc de cet Etat , trad de l'anglais par , J . Mac Carthy , ed : Marlin, Paris , 1830 , pp : 252 – 253 .

الباحث مجبرا على حصر ورصد النظريات المقدّمة، ولكن دون سند علمي يُميل الكفة لصالح واحدة من هذه النظريات.

فدابر ومارمول يجعلانها مدينة رومانية؛ استنادا إلى وجود بعض الآثار الرومانية واللوحات المنقوشة بها.

ولكن الرحّالة الانجليزي الدكتور شاو يخالف هذا الرأي ويعلِّق عليه؛ بحجة خلو المدينة من أيّ آثار لعمائر أو أطلال رومانية داخلها، ونسبها إلى الأهالي باعتبار أن بنيانها شبيه بالقلعة[15]؛ إذ أن تشابه البنيان دليل على وحدة الباني حسب رأيه فيقول : " ... ويبدو أن هذه المدينة قد بنيت مكن قبل الأهالي، على أساس أن بناءها يشبه مدينة القلعة، كما أنها لا تحتوي على أي آثار لمعبد أو بناء روماني، خلاف ما يرى دابر ومارمول ...

أما المنطقة الواقعة شمال مازونة وبلاد بني زروال حتى جبل الديس؛ فتعرف بمغراوة، نسبة لقبيلة مشهورة في تاريخ المنطقة، ومازالت تحكم جزءا من هذه البلاد إلى اليوم ... " [16] .

وأما ابن خلدون؛ فله تفصيل آخر حول نسبة هذه المدينة، فهو يرجع تأسيسها إلى عبد الرحمان شيخ قبيلة مغراوة [17] وأولاده؛ إذ يقول :

" وأسلمها لعبد الرحمن ... (وكان له من الولد) منديل وتميم، وكان أكبرهما منديل، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة، وسما لمنديل أمل في التغلّب على ما يليه...

(ونقل الإخباريون) أنّ أهل متيجة - لذلك العهد - كانوا يجمعون في ثلاثين مصرا، فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها، وخرّب عمرانها، حتى

---

[15] هي قلعة بني راشد التي تأسست على يد بني راشد بن محمد ، من بطون مغراوة ، حوالي القرن السادس للهجرة ، بأمر من رئيسهم الإسحاقي من ذرية أبي إسحاق إبراهيم بن عمران الراشدي ، وبظهورها خربت البطحاء فاستوطنها من أهلها خلق كثير من فليتة وبني غدو وسجرارة وبعض قبائل هوارة الذين تحمل إسمهم في بعض الروايات التاريخية .
ينظر : محمد بوركبة ، جوانب من مخطوط قلعة بني راشد للشيخ أبي عمران القلعي ، (المجلة الجزائرية للمخطوطات)، العدد 1 ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، سيدي بلعباس ، 2003م ، ص ص : 110 – 111 .

(i) [16] **Shaw Thomas , op cit , p : 253 .**

[17] مغراوة من أوسع بطون زناتة ، وهم أهل الباس والغلب منهم ، نسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن ألديرت بن جانا ؛ إخوة بني يفرن وبني يرنيان ... ، وأمّا شعوبهم وبطونهم فكثير ؛ مثل بني يلبث وبني زنداك وبني رواو ورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورميغان والأغواط وبني ريغة وغيرهم ... وكانت محلّاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مدبولة وما إليها .
ينظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، تحقيق: خليل شحادة ، ط 2 ، دار الفكر، بيروت ، 1408 هـ - 1988 م ، ج : 7 ، ص : 33 .

تركها خاوية على عروشها ... ثم غلبهم بنو توجين على جبل الونشريس وضواحي المريّة وما إلى ذلك.

وانقبضوا إلى مراكزهم الأوّل شلف ، وأقاموا فيها ملكا بدويا ،لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط . واستولى على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال ... مقيمين فيها الدعوة الحفصيّة ، واختطوا [18] قرية مازونة [19] ".

وحسب هذا الرأي ؛ فالمدينة بنيت مع نهاية عهد الموحدين أو قريبا من ذلك، وليست قديمة كما زعم من نسبها إلى الرومان ، أو أنّ المدينة بنيت حديثا ، قريبا من المدينة العتيقة التي يتحدث عنها أصحاب الرأي الأول .

ولا يمكن للباحث في غياب وثائق تؤكّد يقينا أحد الرأيين؛ أن يفصل بينهما إلا من باب الترجيح استقراء لدلائل كل رأي .

وفي هذا السياق يمكن إيراد ما ذكره بلحميسي، من أنّ بعض الباحثين ذهبوا إلى أن بناء المدينة متأخر جدا عن المزاعم سابقة الذكر - حسب رأيهم -، ولم يقبلوا فكرة كون المدينة قديمة ، بنيت في عهد الرومان أو قبله ، وهم بذلك يؤيّدون رأي ابن خلدون السابق الذكر .

وللاستدلال على ما ذهبوا إليه ، اعتمدوا على خلو مؤلفات بعض الجغرافيين العرب من أي تلميح إلى المدينة ، مثل ابن خرداذبة [20]، واليعقوبي [21] والبكري [22] .

---

[18] خط الخطة واختطها : اتخذها لنفسه ، وأعلم عليها علامة بالخط ؛ ليعلم أنه قد احتازها ليبنيها دارا . وفي اللسان: الخِطة ، بالكسر : الأرض والدار يختطها الرجل في أرض غير مملوكة ليتحجّرها ويبني فيها ، وذلك إذا أذن السلطان لجماعة من المسلمين أن يختطوا الدور في موضع بعينه ويتخذوا فيها مساكن لهم ، كما فعلوا بالكوفة والبصرة .
ينظر : مرتضى الزَّبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، بلا ، بدون، ج : 19 ، ص : 253 .

[19] عبد الرحمن ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 7 ، ص ص : 86 – 88.

[20] هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه، أبو القاسم : مؤرخ جغرافي ، فارسي الأصل . من أهل بغداد.ولد نحو سنة : 205 هـ – 820م، له تصانيف، منها " المسالك والممالك " و" جمهرة أنساب الفرس "، " اللهو والملاهي "، " الشراب "، " الندماء والجلساء " و" أدب السماع " توفي نحو : 280 هـ - 893 م ينظر : الزركلي، مرجع سابق، ج : 4 ، ص : 190.

[21] هو أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي : مؤرخ جغرافي كثير الأسفار ، من أهل بغداد، كان جده من موالي المنصور العباسي ، رحل إلى المغرب وأقام مدة في أرمينية، ودخل الهند، وزار الأقطار العربية ، وصنف كتبا جيدة منها (تاريخ اليعقوبي) ، وكتاب (البلدان) ، و(أخبار الأمم السالفة) و(مشاكلة الناس لزمانهم) رسالة، واختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال ياقوت : سنة : 284 ، ونقل غيره 282 ، وقيل: 278 أو بعدها ، ورجحت أخيرا رواية ناشر الطبعة الثانية من التاريخ إذ وجد في كتاب البلدان (الصفحة 131 طبعة النجف) أبياتا لليعقوبي نظمها ليلة عيد الفطر سنة 292 ه، ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص : 95 .

[22] عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي ، أبو عبيد : مؤرخ جغرافي ، ثقة . علامة بالأدب ، له معرفة بالنبات . غربي إشبيلية) . له كتب جليلة، Saltesوقال الصفدي : " كان ملوك الأندلس يتهادون مصنفاته .... " ، ولد في شلطيش (منها : " المسالك والممالك " طبع جزء منه باسم " المغرب في ذكر إفريقية والمغرب " وقطع خاصة بالروس والصقلب و"

ولكن بلحميسي عقّب على هذا الرأي؛ معتبرا موقع المدينة البعيد، عن المسار الذي وصفه هؤلاء الرحالة؛ هو سبب إهمالهم لذكرها [23] .

وهو تعقيب في محلّه ، وسيتضح ذلك جليا حين الحديث عن الطرق التجارية وعلاقة مدينة مازونة بها في الفصل الثالث .

وكما اختُلف في تاريخ تأسيس المدينة وفي من أسسها؛ اختُلف في أصل تسميتها بين من كتبوا حول الموضوع .

فقد جاء على لسان الزياني في كتابه دليل الحيران [24]؛ أن أصل كلمة مازونة يرجع إلى اسم قبيلة بربرية زناتية كانت تسكن المنطقة، وهو "ماسون" أو "مازون".

أما لوكيل يوسف فيورد روايتين، إحداهما أن المدينة أخذت اسمها من أميرة كانت تحكم هذه البلاد، وكان كنزها كلّه مكوّن من قطع ذهبية، كانت تعرف "بموزونة"، قيمة كل قطعة حوالي 10 سنتيم بعملة زمانه .

وتُرجع الأسطورة الثانية اسم المدينة إلى راع كان يرعى غنمه في موضع المدينة، والذي كان يحيط به مجرى واد بوماتع من جهة، وواد تامدة من جهة أخرى، ما يجعل الموضع يأخذ شكل الموزونة، وأنه أكثر من مدح هذا الموضع؛ مما دفع الناس إلى الارتحال إليه للسكن . وسرعان ما تكاثر عددهم لتتشكل مدينة أخذت منذ ذلك الحين اسم مازونة، وتواصل الأسطورة تحكي مصير هذا الراعي المأساوي في شكل درامي جميل [25].

والغريب أن لوكيل يوسف تقبّل هذه القصة دون تعليق؛ كما يروي بلحميسي [26] رغم ما يبدو عليها من الطرافة التي تقربها إلى الخيال أكثر من الحقيقة.

ويرى بلحميسي أن أصل المدينة – بناء على رأي آخرين -؛ يرجع إلى مدينة رومانية قديمة اسمها "ماسونة" "MASUNN "؛ كما توضحه لوحتين

معجم ما استعجم " و " أعلام النبوة " و " شرح أمالي القالي " و " التنبيه على أغلاط أبي علي القالي في أماليه " و " أعيان النبات ". توفي سنة : 487 هـ - 1094 م، ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 4 ، ص : 98 .

(j) [23] **Moulay Belhamissi , op cit , p : 26**

[24] محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق : المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1978م ، ص : 55 .

(k) [25] **Y. Loukil , op cit , p : 13 .**

(l) [26] **Moulay Belhamissi , op cit , p : 21 .**

أثريتين قديمتين عثر عليهما حديثا قرب مازونة [27]، فتحول الاسم اللاتيني ماسونى إلى البربري مازونة [28] .

رغم أن هذا الرأي تدعمه تلك التنقيبات الحفرية إلا أنّ "دامغت Damaeght_" يرفضه ويرجع أصل التسمية إلى اسم ملك كان يحكم البلاد اسمه " ماسينة "، وليس إلى اسم مدينة [29]

أخيرا يرجع البعض – حسب رواية بلحميسي دائما - أصل التسمية إلى المعنى البربري الذي مفاده أن مازونة تعني أرض الرجال الأقوياء [30] .

ذكر المدينة في المصادر التاريخية :

ذكر ابن بطوطة [31] المدينة في معرض حديثه عن المدن التي مرّ بها في رحلته، لكن من غير وصف أو تفصيل إذ يقول:"... ثمّ خرجنا عنها، بعد عشر إلى مدينة تنس، ثم إلى مازونة، ثم إلى مستغانم، ثم إلى تلمسان؛ فقصدت العباد وزرت الشيخ أبا مدين - رضي الله عنه ونفع به- ثم خرجت عنها على طريق ندرومة، وسلكت طريق أخندقان وبت بزاوية الشيخ إبراهيم..."[32].

كما ذكرها العبدري [33] في رحلته بقوله : "... ثم رحلنا على طريقنا الأولى إلى مليانة فتيامنّا منها على طريق مازونة؛ مثوى خطوب الزمن ،

---

[27]. وجدت اللوحتان من قبل فريق بحث فرنسي في بلدية سيدي امحمد بن علي ، على بعد 2,5 كم من مازونة.

(m) [28] Moulay Belhamissi , op cit , p : 21

(n) [29] Damaeght , Notes sur le Dahra occidentale , B.S.G.O ,1882 , pp : 132-134.

(o) [30] Moulay Belhamissi , op cit , p : 21

[31] هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ، أبو عبد الله، ابن بطوطة: رحالة مؤرخ . ولد ونشأ في طنجة سنة : 703 ه – 1304 م . وخرج منها سنة 725 هـ ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقية . وأملى أخبار رحلته على (محمد ابن جُزَيّ) الكَلْبي بمدينة فاس سنة 756 ، وسماها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ومات في مراكش سنة : 779 ه- 1377 م، **ينظر** : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 6 ، ص : 236 .

[32] ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ،1417هـ، ج : 4، ص : 190 .

[33] هو محمد بن محمد بن محمد بن علي ابن أحمد بن مسعود أبو عبد الله العبدري : فقيه رحالة مالكي . يقال له الحاحي و(الحيحي) نسبة إلى بلاد (حاحة) القبيلة البربرية ، على 60 كيلومترا من (الصويرة) في الشاطئ الاطلنطي. ولد ونشأ بها، وتعلم حتى كان قاضيا بمراكش، ثم استقر في حاحة وتوفي بها، وقبره معروف فيها يطلق عليه اسم (سيدي أبو البركات)،

ومناخ ركاب الحدثان، وهي بليدة مجموعة مقطوعة من بعض جهاتها بحرف واد منقطع شبه قلعة، ولكنها واهية حسّا ومعنى وليس بها ما يتعرض لذكره البتة ..."[34].

وفي كتاب العبدري أبيات نظمها ابن الفكون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش جاء فيها :

وفـي تـنس نسـيت جميـل صبري وهمت بكل ذي وجه وضي

وفـي مازونـة مـا زلـت صبـا بوسنان المحاجر لـوذعي

وفـي وهـران قـد أمسـيت رهنا بضـامر الخسـر ذي ردف روي[35]

أما الحسن الوزان الفاسي[36] المشهور في الكتابات اللاتينية بليون الإفريقي، فيصف المدينة في بداية القرن السادس عشر، ومن جملة وصفه يذكر الآثار الكثيرة المحيطة بالمدينة، والتي يرجع تاريخ بنائها إلى العصر الروماني.

ورغم أن هذه الآثار العمرانية؛ لا تذكر أي اسم قد نستشف منه تاريخ التأسيس، أو اسم المؤسس، أو اسم المدينة عند الرومان، ولكن كثرة الكتابات الواردة على ألواح الرخام تكاد تؤكد أن الرومان وإن لم يكونوا أول من أسّس هذه المدينة ؛ فإنهم سكنوها وعمروها وتركوا آثارا تدل - بما لا يدع مجالا للشك - على سكناهم للمدينة[37].

وكان شاعرا فحلا وأديبا نقادا . وهو صاحب (الرحلة العبدرية) قام بها في 25 ذي القعدة 688 . توفي سنة : نحو 700 هـ - 1300 م، **ينظر** : الزركلي ، المرجع السابق ، ج : 7 ، ص : 32 .

[34] أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ، الرحلة المغربية ، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي ، إصدارات وزارة الدولة المكلفة بشؤون الثقافة والتعليم الأصلي ، الرباط ، 1968 ، ص : 278 .

[35]. نفس المرجع ، ص : 278.

[36] Jean Leon هو الحسن بن محمد الوزان، أبو علي ، الغرناطي أصلا ، الفاسي دارا ، المسمى في أسره يوحنّى الأسد جغرافي من العلماء، رحالة، مؤرخ أندلسي. ولد في غرناطة Leon، Africainوالمعروف عند الإفرنج باسم ليون الافريقي نحو سنة : 888 هـ – 1483م ، أشيع أنه تنصر، وتعلم الإيطالية واللاتينية ، وكان يحسن الإسبانية والعبرية. صنف (معجما طبيا) عربيا لاتينيا عبريا، وكتاب (وصف إفرقية)، ومن كتبه أيضا (مختصر تاريخ الإسلام) و(تاريخ إفريقية) و(مجموع شعري) في الوعظ والزهد، وله رسالة باللاتينية في (تراجم الأطباء والفلاسفة العرب)، وصنف كتابا في (العقائد والفقه الإسلامي) ومات على أكثر الروايات، مسلما في تونس نحو سنة 1552 م، **ينظر**: الزركلي، مرجع سابق، ج : 2 ، ص : 218 .

[37] الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ق 2، ص : 36 .

ويقول عنها أيضا : " مدينة أزلية بناها الأفارقة – حسب قول بعضهم – على بعد نحو أربعين ميلا من البحر، تمتد على مساحة شاسعة ، تحيط بها أسوار متينة ، لكن دورها قبيحة فقيرة ، وفيها جامع وبعض مساجد أخرى ..." [38].

ويذكرها المازاري في معرض حديثه عن زيري بن عطية، وما تعلق بأمر دولته، وخروج أبو البهار بن زيري بن مناد مخالفا على ابن أخيه منصور بن بلكين ظهير الشيعة، وعدّها من بين المدن التي غلب عليها أبو البهار ، وخرجت عن حكم الشيعة، وتبعت المروانيين بالأندلس مع تلمسان ووهران وتامزغران، ومستغانم والبطحاء وتنس وشلف وشرشال ووشريس ومليانة، وغيرها كثير من بلاد الزاب، وذلك سنة 377هـ [39].

أما صاحب الروض المعطار أبو عبد الحميري [40]، فيعرفها كما يلي : " مازونة : بالمغرب بالقرب من مستغانم، وهي على ستة أميال من البحر، وهي مدينة بين أجبل، ولها مزارع وبساتين وأسواق عامرة، ولها يوم يجتمع فيه لسوقها أصناف البربر، بضروب من الفواكه والألبان والسمن، والعسل بها كثير، وهي من أحسن البلاد صفة، وأكثرها فواكه وخصباً " [41].

وهو في هذا التعريف؛ ينقل حرفيا جزءا مما ذكره الإدريسي في كتابه " نزهة المشتاق " ولا يزيد عليه إلا كونها بالمغرب قرب مدينة مستغانم، وذكرها الغرناطي [42] صاحب المُغرب في حُليّ المغرب، - في معرض حديثه عن المدن الموجودة في القسم السادس من العالم حسب تقسيمه - فيقول

---

[38]. الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ق 2 ، ص : 36 .

[39] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحيى بوعزيز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 م ، ج : 1 ، ص : 125 .

[40] هو محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور ، أبو عبد الله الحميري : عالم بالبلدان والسير والأخبار. أندلسي ، من أهل سبتة . له (الروض المعطار في أخبار الأقطار) ، توفي سنة : 900 ه - 1495 م . ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 7 ، ص : 53 .

[41] الحِميرى ، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، ط 2 ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت، 1980 م ، ص :521 .

[42] أبو الحسن بن سعيد علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي الأديب الأخباري الشهير صاحب التصانيف الأدبية. ولد بغرناطة سنة عشر وستمائة، وأخذ عن الشلوبين وغيره ، وجال في الأقطار ، ودخل مصر والشام وبغداد ، وألف المُغرب في حُلي المغرب ، والمُشرق في حلي المشرق ، والطالع السعيد في تاريخ بلده. مات بتونس سنة خمس وثمانين وستمائة، **ينظر** : جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط 1 ، 1387 هـ - 1967 م ، ج : 1 ، ص : 555 .

: " ... في غرب هذا الإقليم ، وفي الجهة الداخلية منه توجد مدن مليانة، ومازونة ... وقسنطينة وقلعة بني حماد..."[43].

أما السخاوي [44] فقد ذكرها في معرض ترجمته لعلي بن المازوني؛ لكنه لم يصفها بشيء، والظاهر أنه لم يكن يعلم بها إذ يقول : " علي بن المازوني بزاي مضمومة وآخره نون، نسبة - فيما يظهر - لقرية يقال لها مازونة " [45] .

2. مازونة من النشأة إلى دخول العثمانيين.

رغم أنّ الحديث عن مازونة فيما قبل العهد الزياني ، لا يعدو التلميح إلاّ أنّ صفحات تاريخ المغرب الأوسط تكاد لا تخلو من تعليق ، أو إشارة إلى هذه المدينة، على مرّ الزمن .

وسنرى في ما يلي ؛ كيف أثّرت المدينة على سير الأحداث ، منذ نشأتها إلى أن أصبحت عاصمة لبايليك الغرب ، عند دخول العثمانيين إلى الجزائر .

لقد عانت المدينة من تقلب السلطة ، في هذا القسم من العالم الإسلامي ، بين الحين والآخر بين المرينيين والزيّانيين والحفصيين ، وزادها تأثّرا ظهور الخلاف بين أبناء حكّامها من قبائل مغراوة ، وجرّ عليها وعلى ساكنيها الكثير من الويلات .

المرحلة البربرية :

بغض النظر عن الاختلافات الواردة حول أصل التسمية، وتاريخ النشأة التي جاءت في مختلف المصادر التاريخية، والتي يصعب الفصل بينها من دون ظهور شواهد جديدة؛ فإن بلحميسي يرى أن غنى المنطقة الجبلية بالموارد النباتية، وبمجموعة من المغارات التي تخبئ الكثير من الآثار البشرية الضاربة في القدم، والتي تدفعنا إلى الجزم بأن الوجود البشري في المنطقة يزامن العهد الروماني، بل قد يتعداه في القدم، فالمنطقة تقع عند

---

[43] E , Fagnan , Extrait Enedits relatifs au Maghreb (Geogphie et Histoire) , Maison Bastide _ Jourdin , Alger ,1924 , p : 6 . (p)

[44] محمد بن عبد الرحمن بن محمد، شمس الدين السخاوي : مؤرخ حجة ، وعالم بالحديث والتفسير والأدب . أصله من سخا (من قرى مصر) ، ومولده في القاهرة سنة : 831ه -1427م ، ساح في البلدان سياحة طويلة، وصنف زهاء مئتي كتاب أشهرها (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع). وله (شرح ألفية العراقي) ، و(المقاصد الحسنة)، توفي بالمدينة سنة : 902 هـ - 1497 م، **ينظر** : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 6 ، ص : 194 .

[45] شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج :11 ، ص : 224.

تقاطع الطرق التي تربط بين تنس وحوض مينا، وبين الأصنام وبقية المدن الساحلية [46] .

والظاهر أن الرومان تنقلوا في المنطقة في جميع الاتجاهات، وكون المدينة تقع في موقع حصين وكثير المياه؛ فلا يستبعد أن يكون الرومان قد اتخذوها أكثر من حصن عسكري [47].

أما مارمول؛ فيرى أن الوجود الروماني بالمنطقة كان بين القرن الرابع والخامس، وتسبب في هجرة البربر من كل سهل الشلف والاحتماء بالجبال [48] .

وذكر بوردون أن " احتمال كون مازونة مدينة رومانية كبير جدا، ومن المؤكد أنّها كانت آهلة بعدد كبير من السكان، وذلك لكثرة ما تحويه المنطقة من آثار رومانية؛ داخل المدينة وخارجها، في جهة بني زروال وأولاد كرلوف " [49] .

ويعلّق في موقع آخر قائلا: " ... هذه المدينة التي من المفروض أنها بنيت في عهد الرومان؛ وإن كان سكانها ينسبونها إلى المسمى ماتع البربري، الذي عاش قبل العهد الإسلامي، لكن موقعها الحسن، على مرتفع ينعم بالمياه الوفيرة المتدفقة، أجمل من أن لا يفكر فيها الرومان، ويتركوا هذا الموقع حتى ينتبه إليه البربر، ومع الأسف لا يمكن توثيق تاريخ المدينة الذي ليس لنا حوله سوى المرويات الشفهية التي توارثها السكان " [50].

وبالنسبة للوكيل يوسف؛ فإنّه قد أغفل الحديث عن المرحلة الرومانية بصفة مستقلة، ولكنه يفرد لما يسمّيه الفترة البربرية عنوانا مستقلا؛ يؤكد من

(q) [46] **Moulay Belhamissi , op cit , p : 27**

(r) [47]**Moulay Belhamissi , op cit, p : 27**

[48] ميزونة) ، ويعتبرها مدينة أوبيدوم نوفيم كولونيا الرومانية، ويحدد MEZUNA ينقل فورنال أن مارمول يسمي المدينة بـ (موقعها حسب بطليموس عند تقاطع خطي طول 16° وعرض 32°، وحسب مارمول دائما " يمكننا أن نرى في المدينة وبجوارها بقايا جميلة لآثار رومانية "، ينظر :

Henri Fournel,Etudes sur la conquete de l'Afrique par les Arabes et recherches sur les tribues Berberes qui ont occupees le maghreb centrale, imprimerie imperiale, Paris ,1857, p : 99 .

(s) [49] **G Bourdon , Etude Geographique sur le Dahra , in B.S.G. 6eme serie , Librairie de ch. Delagrave et cie, Paris , 1872 , t 3 , p : 595 .**

(t) [50] **Ibid , p : 596 .**

خلاله أن المدينة بربرية المنشأ، ويدلل على ذلك بكثرة الأسماء البربرية، التي تعرف بها مختلف أحيائها وجبالها، وعيون الماء فيها[51].

3. مازونة في العهد الإسلامي :

نظرا لفقر الكتابات التاريخية حول المدينة قبل العهد الزيّاني؛ فمن الصعب الحديث عنها قبل ذلك التاريخ ، فما كتب قبل ذلك لا يكاد يعدو شذرات هنا وهناك، تقتصر في معظمها على أن القائد الفلاني مرّ بها، أو أنها كانت ضمن المدن التي خضعت لحكم قبيلة مغراوة، أو غير ذلك من الإشارات المقتضبة ، والتي لا تعطينا أي وصف يمكن أن يعرف منه حجم المدينة أو أثرها التاريخي والحضاري.

من ذلك ما نقله الوزان بقوله : " ...لقد كانت مدينة متحضرة جدا في القديم ، لكنها كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ، ومن قبل الثوار تارة أخرى ، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم (القرن السادس عشر) قليلة السكان، وهم إما نسّاجون؛ أو فلاحون ، وجميعهم تقريبا فقراء، لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات، والأراضي المزروعة جيدة تعطي غلة حسنة "[52].

ومنه ما يذكره الناصري [53] عن مدينة مازونة بقوله : " ... ثمَّ استولى عليّ بن إسحاق على الجزائر ثمَّ على مازونة ثمَّ على مليانة ثمَّ على القلعة ثمَّ نازل قسنطينة فامتنعت عليه واتصل الخبر بالمنصور، فسرح السَّيد أبا زيد بن أبي حَفص بن عبد المُؤمن، وعقد له على حرب ابن غانية ، وعقد لمحمد بن إبراهيم بن جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو مُحمَّد بن عطوش وأحمد الصّقليّ ، فوصل السَّيّد أبو زيد إلى أفريقية ، وشرّد ابن غانية عنها إلى الصَّحراء في أخبار طويلة ... " [54] .

(u) [51] Y. Loukil , op cit , p : 14 .

[52] الحسن بن محمد الوزان ، مصدر سابق ، ق 2 ، ص : 36 .

[53] أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الناصري الدرعي ، شهاب الدين ، السلاوي : مؤرخ بحّاث . ولد سنة : 1835م، في مدينة سلا (بالمغرب الأقصى) ، اشتهر بتاريخه الممتع النفيس (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى). وله (زهر = الأفنان في شرح قصيدة ابن الونان) ، و(طلعة المشتري في النسب الجعفري) ، و(تعظيم المنة بنصرة السنة) ، و(الفلك المشحون بنفائس تبصرة ابن فرحون) ، و(كشف العرين عن ليوث بني مرين) ، و(تقييد في البربر) ، توفي سنة : 1315ه -1897م. ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 1 ، ص : 120.

[54] شهاب الدين أبو العباس الناصري الدرعي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، بدون ، ج : 2 ، ص : 160 .

ويجزم بوردون أن المدينة لم يدخلها الإسلام في الحملة الأولى لجيوش الفاتحين المسلمين في القرن السابع الميلادي، لكن أهلها سرعان ما عرفوه ودخلوا فيه، وقدّموا للفاتحين الجدد رجالا أشداء للمشاركة في فتح الأندلس، كما شاركوا في بناء الدولة المرابطية بفاعلية، وقدموا بعد ذلك لعبد المؤمن أقوى المحاربين ، لبناء الدولة الموحدية غير أنهم هُزِموا أمام الهلاليين وسامتهم قبائل المحال سوء المعاملة بعد انهزامهم .[55]

وأما بلحميسي فيعتبر ؛ أن القرن الثاني عشر الميلادي هو عصر الازدهار في تاريخ المدينة، حيث ابتداءً من هذه الفترة بدأت المدينة تعرف ذكرا واضحا في التآليف، كما هو الحال مع الإدريسي في نزهة المشتاق ، الذي جعل المدينة عامرة بالنشاط التجاري ، الذي مردّه إلى كثرة المنتوج الفلاحي والحيواني الذي تنعم به الأراضي الخصبة المحيطة بالمدينة ، بالإضافة إلى المنتوج الصناعي والحرفي، الذي ملأ أسواقها بالزرابي والأصواف المصبوغة، وجعل بينها وبين مدن أخرى كالقلعة وتلمسان ومراكش روابط تجارية قوية، حتّمت على القوافل التجارية المرور بها للتزود بمنتوجاتها [56].

وإذا كان للمدينة هذا الظهور الاقتصادي؛ سيكون لها أيضا دور سياسي في إطار الصراع الذي عرفته بلاد المغرب الأوسط، على عهد بني زيان [57] ، سواء خلال التنافس بينهم وبين جيراهم الحفصيين شرقا والمرينيين غربا، أو عند التنافس الداخلي بين مختلف فروع البيت الزياني على هرم السلطة ودور سكانها قبائل مغراوة في هذا الصراع [58] .

فاختلاف الولاء بين دولة وأخرى؛ جعل المدينة تهوي في ظلام سحيق، مرده إلى الحملات التأديبية، التي عانت منها كلما انقلب ميزان القوة ضدها.

ففي سنة 639 هـ؛ وفي عهد علي بن منديل الذي خلف أباه على حكم مازونة ومعها قبائل مغراوة، وقع تحالف بينهم وبين بني توجين، وطلبوا

(v) [55] G Bourdon , op cit , p : 597 .

(w) [56] Moulay Belhamissi , op cit , pp : 33 - 34

[57] تميّز عصر الدولة الزيانية بكثرة الصراعات السياسية ، خاصة وأن بلادهم وقعت بين فكي الرحى ، الحفصيون من الشرق والمرينيون من الغرب ، ناهيك عن الصراعات بين أبناء البيت الحاكم داخل دولة بني زيان .
ينظر : يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980.208 : ص ، 1 : ج ،

[58]. 286 - 281: نفس المصدر ، ج : 2 ، ص ص

تدخل أبو زكريا الحفصي، لدعم هذا الحلف ضد بني عبد الواد؛ فأسرع إليهم وهزم الزيّانيّين ودخل عاصمتهم تلمسان، وفي طريق عودته عيّن عليا هذا حاكما على مازونة، وطلب منه أن يلبس الخلعة ، ويتصرف تصرف الملوك؛ نكاية في بني زيان ومنازعة لهم على ملك المغرب الأوسط [59].

وفي سنة 686 هـ؛ حاول أبو سعيد عثمان الأول [60] الذي حكم _ بعد أبيه يغمراسن بن زيان _ عرش الدولة الزيّانية أن يفرض سلطانه على كامل المغرب الأوسط، فحاصر بجاية، لكنه فشل في إسقاطها، وفي طريق عودته " ... أخذ مازونة من أيدي مغراوة، وحصن تافرجنيت من أيدي توجين ... فدوّخ بلادهم، وأحذ ونشريس معقلهم، وسبا حرم محمد بن عبد القوي، ثم صرفهن إلى قومهن"[61].

وفي نفس السنة؛ اتخذ أبو سعيد حاكم تلمسان المدينة خزانا للقمح، الذي جمعته جيوشه من القبائل المنهزمة أمامها في أراضي بني توجين [62] .

وهو ما يؤكّده عبد الرحمن بن خلدون بقوله : " وفي خلال هذه الولايات؛ استغلظ عليهم بنو عبد الواد، واشتدّت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم، بعد مهلك أبيهم محمد (بن عبد القوي)، فنهض إليهم سنة ست وثمانين وستمائة، وحاصرهم بجبل وانشريس، وعاث في أوطانهم، ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة " [63].

محنة أخرى عرفتها مازونة بعد حصار تلمسان، من قبل حكّام فاس، الذين دانت لهم البلاد بعدها، فرغم المقاومة الشرسة؛ عجزت قبائل بني

(x) [59] **Arnaud , Voyages extraordinaires et nouvelles agreables par Mohamed Abou ras Ennasri, in Revue Africaine , ed: A Jourdin , Alger , 1879 , p : 292 .**

[60] هو عثمان بن يغمراسن بن زيان ، أبُو سعيد ، من بني عبد الواد ، ولد سنة : 639 – 1241م ، صاحب تلمسان في المغرب الأوسط ، وليها بعد وفاة أبيه (سنة 681 هـ) ، وبدأ بإخضاع بعض البلاد الخارجة عن نطاق دولته ، فأحرق قرى بجاية ، واستولى على مازونة ، وعلى بلاد أخرى ، وهاجمه السلطان يوسف بن يعقوب المريني (سنة 689هـ) فهزمه أبو سعيد ، وجدد زحفه على من استمالهم المريني ، فدوّخ بلادهم . وأعاد السلطان يوسف كرّته عليه، سنة 695 و 696 و 697 هـ) ، ففشل في غاراته كلها ، ثم تمكن من محاصرة أبي سعيد في قاعدة ملكه ، ونقض كثير من القبائل طاعته واشتد الضيق على تلمسان " وهلك الناس بالجوع والسيف والمنجنيقات " ، فتوفي أبو سعيد وهو محصور فيها وذلك سنة : 703 ه - 1304 م . ودام حكمه 21 سنة إلا شهرا، ينظر : الزركلي ، مرجع سابق ، ج : 4 ، ص : 215 .

[61]. يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج : 1 ، ص : 208 .

[62]: ينظر **Moulay Belhamissi , op cit , pp : 35** 281 : ص ، 2 : ج ، الرواد بغية ، خلدون بن ويحيى ،

[63] . 211 : ص ، 7 : ج ، خلدون بن الرحمن عبد ، سابق مصدر ،

توجين ومغراوة عن صد هجمات أبي يعقوب المريني، فآثرت الخضوع للحاكم الجديد [64] .

وبعد عودة حكم المغرب الأوسط إلى الزيانيين في منتصف القرن الرابع عشر؛ خضعت المدينة مجددا إلى سلطانهم، وحكمها حلفاؤهم من قبائل سويد، الذين تغلبوا على معظم البلاد الخاضعة لبني عبد الواد، الذين لم تعد سلطتهم تتجاوز في الكثير من الأحيان حدود عاصمة ملكهم تلمسان [65] .

وقد أورد عبد الرحمن بن خلدون جملة هذه الصراعات، التي عرفها البيت الزياني، وعانت منها مازونة وما جاورها مرات متعددة؛ منها وصفه لحملة عثمان بن يغمراسن بقوله : " ... ولما هلك يغمراسن ، وقام بالأمر بعده ابنه عثمان، انتقضت عليه تنس، ثم ردّد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة ، حتى غلبهم آخرا على ما بأيديهم، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين وستمائة ، وغلب ثابت بن منديل على مازونة ، فاستولى عليها ، ثم نزل له عن تنس أيضا فملكها . ولم يزل عثمان مراغما لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمائة؛ فاستولى على أمصارهم وضواحيهم، وأخرجهم عنها وألجأهم إلى الجبال" [66] .

ومنها روايته عن الصراع بين بني منديل حكام تنس وبني يغمراسن أصحاب تلمسان، ودور مغراوة سكان مازونة فيه حيث قال : " ... سرّح عساكره في نواحيها، وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن ويعزن بن منديل، وبعث معه جيشا ففتح مليانة وتنس ومازونة سنة تسع وتسعين وستمائة، ووجد راشد في نفسه إذ لم يوله على قومه، وكان يرى أنه الأحق لنسبه وظهره، فنزع عن السلطان ولحق بجبال متيجة، ودسّ إلى أوليائه من مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة ، فأجدّ السير ولحق بهم، فافترق أمر مغراوة، وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان، وبيّت عمر بن ويعزن بأزمور من ضواحي بلادهم فقتله، واجتمع عليه قومه، وسرّح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن عليّ بن أبي الطلاق، ومن بني ورتاجن لنظر عليّ بن محمد الخير، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن إبراهيم بن عبد

(y) [64] Moulay Belhamissi , op cit , pp : 35 .

(z) [65] **Ibid , pp : 35**

[66]. عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 7 ، ص : 90 .

القوي، ومن الجند لنظر علي بن حسّان الصبحي من صنائعه، وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل .

وزحفوا إلى مازونة وقد ضبطها راشد، وخلّف عليها عليّا وحمّوا ابني عمه يحيى بن ثابت، ولحق هو ببني بوسعيد مطلاّ عليهم، وأناخت العساكر على مازونة، ووالوا عليها الحصار سنين حتى أجهدوهم" [67] .

وفي سنة 750 هـ، وبعد إحياء الدولة العبد الوادية (الزيانية)، على يد الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت، غزا الأخير وهران، بعد أن أعدّ لها العدة وفتحها عنوة، ثم غزا ناحية شلف، بعد أن " ... نشأت بينه وبين مغراوة ريح السعايات، واستحكمت صبغة العداوة، فنهض إلى قتالهم ... والتقت الطائفتان بواد ارهيو .... ثم انجلت الكائنة عن هزيمة مغراوة، واستئصال محلاّتهم وفرارهم إلى رؤوس الجبال وبطون الشعاب ... " [68]، فبعثت مازونة ببيعتها للأميرين[69].

4. مازونة في العهد العثماني :

بدخول العثمانيين إلى الجزائر، وإخضاعهم المغرب الأوسط إلى سلطانهم؛ عرفت مازونة نقلة نوعية لم تشهدها من قبل، فلقد جعلوها عاصمة لأحد البايليكات التي نظموا من خلالها إدارتهم للأيالة [70]، إذ اختارها حسن بن خير الدين - الذي حكم البلاد نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر - عاصمة لبايليك الغرب، ومنطلق الحملات لحماية مستغانم، وقلعة بني راشد اللتين كانتا مهددتين باستمرار بالغزوات الإسبانية، المنطلقة من وهران، ومنها انطلقت وسيّرت الجيوش لمحاولة تحرير وهران أو حصارها.

كما كانت مستقرّا للباي بن خديجة أول بايات الغرب، بعد عودة حسن بن خير الدين من حملته على الغرب سنة 1563م.

وقد كان أول اتصال بين الحكام الجدد للجزائر ومازونة، في عهد علج علي الذي عزم منذ بداية ولايته على هزيمة إسبان وهران، فأرسل جيشا

---

[67]. عبد الرحمن بن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 7 ، ص : 91 .

[68]. يحيى بن خلدون ، مصدر سابق ، ج : 1 ، ص : 243 .

[69] عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1989م ، ص : 26 .

[70] قسم العثمانيون أيالة الجزائر إلى ثلاث بايليكات هي : بايليك الشرق وعاصمته قسنطينة ، وبايليك التيطري وعاصمته المدية ، وبايليك الغرب وعاصمته مازونة فمعسكر وأخيرا وهران ، وأما مدينة الجزائر وأحوازها ؛ فعرفت بدار السلطان. **ينظر** : صالح عياد ، الجزائر في خلال الحكم التركي ، ط 3 ، دار هومة ، الجزائر ، 2011 م ، ص : 292.

كبيرا إلى المدينة، وبعث جزءا من محلته الخاصة للمشاركة في الغزوة وأنزلها بمازونة ومستغانم.

وفي نفس الوقت أرسل سفنه إلى المرية لتدعم الحركة الاحتجاجية التي كان مأمولا أن تنطلق في نفس الوقت على أيدي الموريسكيين في غرناطة حتى يشغل إسبانيا في عقر دارها عن دعم المحاصرين في وهران، لكن الخطة فشلت بعد أن كشف مدبرو الثورة في غرناطة، وتم إعدامهم ووأدها في المهد .[71]

لم تتوقف حملات أوجاق الجزائر، على الجهة الغربية من الجزائر لفرض سلطانهم عليها، ولم يبق لهم غير وهران ومرسى الكبير ، وما قد يأتي من تهديدات ملوك المغرب، الذين توجسّوا خيفة من الأتراك منذ قدومهم، ولم يقبلوا الاعتراف بسلطتهم ؛ رغم سعي الباب العالي بشتى الوسائل إلى إدخال المغرب الأقصى ضمن الرابطة العثمانية [72] .

وبعد فشل جهود حسن بن خير الدين في ولايته الثانية في تحرير وهران؛ آثر أن يترك حامية عسكرية، تكون درعا أمام أي هجوم محتمل على دولتهم، وثغرا متقدما يترقب الفرصة لتحرير المدينة، فاختار جبال الظهرة حيث كان متأكدا أن الإسبان لن يغامروا ويأتوا للبحث عنه، ومن هناك كان ممثله الباي مستعدا لمساعدة مستغانم وقلعة بني راشد التي كانت تساعد بدورها نوبة تلمسان[73] .

مازونة عاصمة لبايليك الغرب :

كان الوضع المذكور نواة لميلاد بايليك الغرب، ومن مازونة وسّع العثمانيون سلطانهم إلى مليانة وبعد ذلك إلى كامل إقليم وهران ولم يبق غير قبيلة بني عامر وقبائل كريشتل على ولائها للإسبان [74] .

(aa) [71] Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête française(1830) , ed ,Ernest Leroux , Paris , t 3 , p : 106 .

[72] اتسمت العلاقة بين الدولة المغربية في عهودها المختلفة وأتراك الجزائر منذ أن أصبحت تابعة للدولة العثمانية بالتوتر الدائم والريبة المتبادلة نظرا لحرص الأتراك وسعيهم جاهدين بشتى الوسائل إلى إدخال المغرب -آخر بلد إسلامي مستقل عنهم- ضمن نفوذهم وحرص ملوكه على مواجهة هذه الجهود بمقاومة شديدة .
ينظر : زهراء النظام ، العلاقات المغربية الجزائرية مقاربة سياسية ثقافية خلل القرن 10-16م ، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ ، جامعة محمد الخامس أكدال ، الرباط ، 2003م .

(bb) [73] E Mercier , op cit , p : 137 .

[74] فصل المشرفي في كتابه بهجة الناظر في هذه القبائل التي كانت على ولاء مع إسبان وهران وقدمت لهم جملة من الخدمات أهمها تزويدهم بالمواد الغذائية والتجسس لهم في القبائل التابعة للبايليك .

وقد قسمت السلطة في بايليك الغرب في بداية الأمر بين بايين اثنين، يستقر الأول بمازونة، والثاني بتلمسان [75]، وهذا يعني أن الأمر لم يكن مستقرا، لذلك كان الإقليم مقسما إلى بايليكين؛ ربما لأن الأوجاق لم يأمنوا على تلمسان القريبة من الحدود الغربية، والمهددة دوما بخطر ملوك المغرب ، فآثروا السلامة في مازونة دون رفع اليد عن تلمسان .

وأكّدت الأيام صواب هذا الرأي ، فبمجرد سنوح الفرصة قام الشريف مولاي محمد سنة 1647 بغزو الغرب الجزائري ، فدخل تلمسان وتقدم إلى ما والاها من الشرق .

وأمام عجز باي مازونة عن صدّه؛ طلب العون من الجزائر، لكن الغازي حمل غنائمه وعاد إلى سجلماسة قبل وصول المدد، فأوفد إليه الباشا عثمان وفدا من علماء الجزائر، وأرسل معهم رسالة [76] دعاه فيها لعدم العودة إلى غزو البايليك، أو إلى المواجهة المباشرة الصريحة . وبالالتفات إلى غزو ما سلبه الكافر من بلاده عوضا عن ذلك فكان له ما طلب إلى حين [77].

وفي العام 1679م؛ تولى حكم مازونة شعبان الزنّاقي، الذي بقي في الحكم 8 سنوات، قضاها في محاربة الإسبان ، وشدّد في التضييق عليهم ، إلى أن هلك سنة 1686م في إحدى حملاته على وهران . وقد فصّل ابن سحنون في بطولاته وشجاعته في محاولة تحرير وهران والمرسى الكبير [78] .

كما أورد الجامعي، في معرض شرحه لأرجوزة الحلفاوي ما نصه : " ... وقوله كقتلى شعبان نصيح ربه ، إشارة إلى أن مصرع كفرة هذا البرج ؛ كمصرع الكفرة الذين قتلهم شعبان باي، وفي هذا استطراد بديع، وتلميح بغزوة عظيمة، أوقع فيها شعبان الزناقي بالكفرة وقعة شهيرة ، ما زالت التواريخ ترقم بذكرها ، ولبات الطروس تتحلى بدرر خبرها .

وقد كان لهذا الباي - رحمه الله - في كفرة وهران وقعات وغزوات، لم يشنّ عليهم أحد مثله شعواء الغارات ، ومن أشهر غزواته هذه التي

ينظر : عبد القادر المشرفي الجزائري ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون ت . ص : 111 .

[75]. يحيى بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، دار الغرب ، وهران ، 2002 ، ص : 80.

[76] أورد الناصري نص الرسالة كاملا في الاستقصا وهو نص مطول لكنه لا يخلو من الفوائد التاريخية واللغوية. ينظر : الناصري ، مصدر سابق ، ج : 2 ، ص : 60 .

(cc) [77] Ernest Mercier , op cit , pp : 241 – 242 .

[78]. ابن سحنون الراشدي ، مرجع سابق ، ص : 108.

استطردها الناظم، وكانت سنة ثمانية وتسعين وألف ، وبها استشهد - رحمة الله عليه - ، وقد أبدى ذلك وأعاده وأظهر من الشجاعة ما يقصر عنه عنترة ابن شداد، أخبرني بعض من حضر معه ؛ أنه تكسّر في يده في ذلك اليوم سيفان، وحُكِي أنه احتفل لذلك اليوم احتفالا عظيما ، لبس فيه أفخر ثيابه، وتحلّى بأشرف حليته ، وركب أجود مراكبه ... "[79].

ورغم كل الجهد الذي بذله الباي شعبان؛ إلاّ أنه لم يستطع تحرير المدينة، بل كان حتفه على أسوارها، على يد المغطّسين عملاء الإسبان، الذين قطعوا رأسه وعلّقوه على أسوار المدينة؛ ممّا أثّر في الجند، وردّهم خائبين إلى مازونة .

أما المشرفي؛ فيكيل السبّ واللّعنات لمن كان سببا في مقتل الباي، من رجال بني عامر، فيقول في حقّه : " ... فكان منهم المرجفون والمنافقون ، والجالبون قلوب الناس للكفر والزنادقة، وليس لهم غيرة على الإسلام ... حتّى أن من جملتهم الكافر أبو نصايبة أحد النصاصيب، الذي قتل الفقيه باي مازونة السيد شعبان الزناقي، عند باب وهران سنة ثمان وتسعين وألف ، واجتز رأسه فلعنه الله من منافق وأخزاه ، فإنه مجرم فاسق ..."[80] .

وقد حاول الباي الجديد إبراهيم خوجة؛ إعداد حملة أخرى في العام الموالي، فانطلق من مازونة ، وحاصر وهران وشرع في قذفها ، لكنّه اضطر لرفع الحصار عنها، والعودة إلى العاصمة للمشاركة في صد هجوم الماريشال دوستري .[81]

وفي سنة 1701م؛ قام السلطان مولاي اسماعيل ملك المغرب، بمحاولة أخرى للسيطرة على البايليك ؛ فهزمه الجيش العثماني بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، مدعوما بمدد داي الجزائر، وحملت رؤوس المهزومين إلى العاصمة، معها أحمال من الغنائم التي نهبت من محلة السلطان المتقهقر، واستطاع الباي بوشلاغم أن يجمع شتات المخزن الداعم للسلطان بعد

[79] عبد الرحمان الجامعي ، شرح أرجوزة الحلفاوي ، مخطوط ورقة : 31.
[80] عبد القادر المشرفي ، مصدر سابق ، ص ص : 30-31 .
[81] يحيى بوعزيز ، مرجع سابق ، ص ص : 93-94 .

هزيمته، ويشكل به مخزنا داعما للبايليك؛ من فرسان الزمالة والدوايرو والعبيد والغرابة الذين انقلبوا طواعية بعد الهزيمة إلى صف المنتصر .[82]

وبقيت مازونة مقرّا لبايات الغرب حتى هذه السنة (1701م) ، حين استغل الباي بوشلاغم هذه المستجدات وحوّله إلى معسكر، ليُحْكِم الحصار على مدينة وهران، وأصبحت مازونة بعد ذلك من أهم حواضر البايليك ، يقيم بها حاكم تحت سلطته الجهة الشرقية للبايليك، وقد اجتمعت له السلطتان المدنية والعسكرية[83] .

وللمازاري تفصيل حول هذا الانتقال ، يذكره في كتابه (طلوع سعد السعود) حول مخزن بايليك الغرب ؛ نوجز منه ما يلي : "... ثم جمعا في الثامن والتسعين وألفا لواحد، وصارت القاعدة قلعة بني راشد ، ثم صارت معسكر ، ثم صارت وهران في الفتح الأول ، ثم صارت مستغانم ، ثم صارت المعسكر ، ثم صارت وهران في الفتح الثاني " [84] .

وإذا كانت مدة بقاء مازونة عاصمة للبايليك معروفة ومحددة بوضوح ؛ كما بيّن المازاري وغيره من المؤرخين ، الذين تناولوا بايليك الغرب بالوصف ؛ فإن جملة من تولّوا حكم البايليك من البايات ،لم يحددوا بدقة، ولا نعرف منهم إلا عددا قليلا ، فبعد بن خديجة جاء صوّاق، الذي مات مسموما كما يروي الزياني، تلاه السايح الذي بقي في الحكم أحد عشر عاما، ومن بعده حكم المدعو سعد، ثم ينقطع الحديث عن البايات حتى السادس عشر، وهو محمد بن موسى ثم شعبان الزناقي ، الذي مات في محاولة لفتح وهران، وقد عدّه جورجوس من أشد البايات شراسة في التضييق على إسبان وهران والقبائل المساندة لهم [85] .

وآخر البايات الذين حكموا مازونة هو مصطفى بوشلاغم، الذي نقل مقر إقامته إلى القلعة ، ومنها إلى معسكر كما سبق الحديث .

(dd) [82] Ernest Mercier , op cit , p : 322 . voire aussi : Louis Rinn , in B.S.G.A.NA , 8eme serie 1903 , p : 99

[83] ، ج : 3 ، ص : 210 . 1994 عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،

[84] الآغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود ، تحقيق يحيى بوعزيز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 م ، ج : 1 ، ص : 270 -

(ee) [85] A Gorguos , Histoire d'un bey de Mascara et de l'oranie, éditions G.A.L Alger, 2006, p:58.

ورغم الاجتهاد الحثيث، في محاولة الحصول على أسماء البايات الأحد عشر، الذين حكموا المدينة فيما بين سعد ومحمد بن موسى؛ لكن دون جدوى، إذ خلت المصادر التاريخية من الحديث عن هؤلاء البايات، وحتى الظهائر الموجهة إلى أعيان وعلماء مدينة مازونة التي بحوزتي، والتي يصادف تاريخها تلك المرحلة تخلو من أسماء حكام المدينة أو لا تعطيهم صفة الباي مما يصعّب على الباحث الفصل بيقين؛ هل هم بايات أغفلهم أصحاب التصانيف لعدم توفر مثل هذه الظهائر وغيرها من الوثائق لديهم ؟ أو أنهم مجرد قادة عسكريين أو ممثلين عن البايات ؟

وبالعودة إلى الأرشيف العثماني بمدينة إسطنبول - الذي زرته مرتين محاولا العثور على أي وثيقة موجهة من دايات الجزائر إلى بايات مازونة - لم أتمكّن من الاطلاع إلا على وثيقتين تخصان مدينة مازونة، وذلك لصعوبة التعامل مع قاعدة البيانات الرقمية للأرشيف، التي هي معدة باللغة التركية فقط، ومن سوء الحظ فإن الوثيقتين لا فائدة تاريخية منهما ، ورغم المساعدة القيّمة من السيد مسؤول قاعة المخطوطات ؛ إلا أنّي لم أعد بطائل من هاتين الزيارتين ، ولعل السبب أن الأرشيف الذي ظل مغلقا طويلا ، ولم يتم إعادة فتحه إلا في السنوات الأخيرة ؛لم يتم ضبط كل وثائقه ، فحسب أحد الباحثين هناك لم يتم ترتيب إلا 36 ألف مخطوطة من بين 2 مليون تحويها خزائنه .[86]

ويذكر بلحميسي أنّ تعداد الأتراك في مدينة مازونة - على كثرتهم - لم يتجاوز ثمانين خيمة، مهمتهم محاولة توسيع نفوذ الأتراك، والدفاع عنه شرقا وغربا في البايليك، لكنهم لم يكونوا في معزل عن باقي أحداث الأيالة هنا وهناك، ولم ينقطع هذا الدور بعد خروج الباي من مازونة إلى معسكر؛ بل إنّ حصار وهران الأخير، والذي جاء بالتحرير الثاني في سنة 1791م؛ شارك فيه أتراك مازونة ومعهم نخبة من علماء مدرستها وطلبتهم ، يقودهم شيخها الجليل بوطالب المازوني[87] .

[86]. هو الدكتور عمر إسحاق اوغلو أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب جامعة إسطمبول.

(ff) [87] M Belhamissi , op cit , p : 47 .